علوم اللسان: من تضافر المفاهيم إلى تضافر التخصصات

سمية إبرير

قسم اللغة العربية و آدابها

جامعة باجي مختار- عنابة

ملخص

تحتل المفاهيم مكان الصدارة في ميدان المعارف والعلوم، فما من عالم إلاّ وشأنه أن يستخدم المفاهيم استخداما، وما من علم إلاّ وشأنه حمل مفاهيمه الخاصة به، التي تبني هويته وتعطيه مكانته بين غيره من العلوم .فالمفاهيم مفاتيح المعارف، ولا يمكن لمعرفة أن تقوم إلاّ بمفاهيمها الخاصة، وهي على نوعين: مفاهيم ترتبط بعلم دون غيره، تترعرع به وتستقر فيه، فتبقى وفية له، لا تغادره إلى ما سواه، ومفاهيم أخرى تهاجر بين العلوم و المعارف، فتعيش بين مجموعة من التخصصات المعرفية، تذهب وتجيء بين هذه المعرفة وتلك، وبين هذا العلم وذاك، مكوّنة بهذا تخصصات جديدة، تحمل جينات علمين معا أو أكثر، فاللسانيات الاجتماعية على سبيل الذكر هي نتيجة لتضافر علمين مختلفين هما :اللسانيات وعلم الاجتماع، مما وَلّد تخصصا جديدا هو" اللسانيات الاجتماعية "وعليه؛ فالتضافر بين المفاهيم يؤدي بالضرورة إلى التضافر بين التخصصات، وهذا ما سنسلط عليه الضوء في هذا المقال .

الكلمات المفاتيح : تضافر، مفاهيم، تخصصات، علوم اللسان .

Science du langage : De la symbiose des concepts à la symbiose des disciplines

Résumé

***Les** concepts occupent une place primordiale dans les savoirs et les sciences. Tout chercheur utilise les concepts qui lui conviennent et chaque science choisit les concepts qui l'expriment, et lui donnent une place entre les autres sciences. Les concepts sont les clés des savoirs, chaque savoir s'exprime à travers des concepts qui lui sont spécifiques. Ces derniers se divisent en deux catégories: des concepts spécifiques qui sont utilisés dans une seule science, nés au sein d'une seule discipline, et restent fidèles a cette science , qu'ils ne quittent jamais, et des concepts nomades qui existent dans plusieurs sciences et savoirs, créant ainsi de nouvelles disciplines génétiquement hybrides, issues donc de deux ou de plusieurs sciences. La socio- linguistique est, par exemple, une symbiose de la linguistique et de la sociologie. Cet article a pour objectif d'éclairer cette relation symbiotique entre les concepts et les disciplines.*

Mot clés : Symbiosité, concepts, disciplines, science du langage.

Linguistics : From the Symbiosis of Concepts to the Symbiosis of Disciplines

Abstract

***C**oncepts occupy a crucial place in knowledge and science. Every scholar uses the concepts that convene him the most , and every science takes the concepts that express it and give it a place between other sciences .*

Concepts are keys to knowledge, every knowledge expresses itself through specific concepts. In this way, that latter are divided into two categories: specific concepts which are used in one science and born in one discipline, they remain faithful to this science which they never leave and nomad concepts which have their life between many sciences and knowledge creating new disciplines, that are genetically hybrid as they are the outcome of two or many sciences.

Sociolinguistics for instance is the symbiosis of linguistics and sociology. Thus the symbiosis of concepts leads necessarily to the creation of new disciplines. The purpose of this article is to shed light on this symbiotic relationship between concepts and disciplines.

Keywords : Symbiosis, concepts, disciplines, language, science.

مقدمة:

مفاتيح العلوم مصطلحاتها التي تحمل مفاهيمها، ولا يكون العلم علما إلاّ بمفاهيمه الخاصة به، فنحن لا نرى العالم بأعيننا بل نراه بمفاهيمنا، لذلك شغلت مسألة المفاهيم الفكر المعاصر بل جعلته يتقلب فيها أيما تقلب؛ فقد تناولها العلماء على اختلاف مشاربهم ومرجعياتهم الفكرية، قديما وحديثا، عربا وعجما، فتناولها علماء الكلام باعتبارهم يبحثون في العقيدة الإسلامية ويريدون إثباتها بالأدلة العقلية والنقلية، فهم يحتاجون لضبط مفاهيمهم ضبطا دقيقا، وتناولها الأصوليون كذلك باعتبارها مسألة عقلية تعينهم على فهم الخطاب الديني فهما صحيحا " فقد منح هؤلاء المفهوم مكانة خاصة ومجالا معينا، فالمفهوم عندهم هو ما يفهم من العبارة المكتوبة أو المنطوقة [...] وتصورهم للمفهوم متعلق بمجال الأحكام الشرعية، وبالتالي فقد ركز الأصوليون على الجمل والتعابير لا على المفردات[1]"، وتناولها الفلاسفة الغرب لأنها مسألة ميتافيزيقية مهمة جدا " فكانت "على سبيل المثال لا الحصر، مناقشة أرسطو لشيخه أفلاطون في أمر العدالة التي دارت في جزء كبير منها على أمر المفهوم" [2]. ولما كانت مسألة المفاهيم مسألة بالغة الأهمية في الفلسفة، فإن العلوم اللسانية قد اهتمت بها هي الأخرى، لأنها –أي العلوم اللسانية– جميعا قامت على أسس فلسفية، فإن المفهوم كان من أهم ما تناولته وركزت عليه اللسانيات، وعلوم اللغة " فوراء كل نظام لغوي تثوي نظرية من المفاهيم [3]"، ودرسها علماء الاجتماع والأطباء... وكل العلوم حتى أصبحت مسألة المفاهيم مسألة تتضافر فيها وحولها كل التخصصات والعلوم" فما من عالم وشأنه أن يستخدم المفاهيم استخداما [4]."فما هو المفهوم ؟ وما تعريفه؟ وأين تمكن أهميته؟ وكيف تتضافر المفاهيم مع بعضها.

مفهوم المفهوم :

أ - لغة :مشتق من الجذر اللغوي(ف، ه، م)، الفهم : معرفتك الشيء بالقلب، فَهِمَه فَهْماً وفَهَامَة، عَلِمَه، وفَهِمتَ الشيء عَقِلتَه وعَرَفتَه، فَهّمتَ فلانا وأفهمتَه وتَفَهَّم الكلام، فَهِمَه شيئا بعد شيء، ورجل فَهِم، سريع الفَهْم، يقال : فَهْم وفَهَم وأَفْهَمَه الأمر وفَهَّمَه إيّاه جعله يَفْهَمه[5] "

وعليه يكون المفهوم في حدّه اللغوي هو ما وقع عليه الإدراك، والمفهوم من الكلام هو المعنى الذي يفهم منه، ويُعرف من خلاله ولكن" هذه المعرفة لا تحصل عن طريق الحواس، ولكنّها تحصل بطريق القلب؛ أي أنَّ ما يحصل هو درجة ثالثة من درجات السيرورة المعرفية؛ وهذه الدرجات هي :الإحساس والإدراك والفهم[6] "

فالمفهوم مبني للمفعولية ؛ اسم مفعول، وهو ما يفهم ويستفاد ويدرك عن طريق القلب من وضع ظاهر اللفظ والأولى أنَّه يُستقى من دلالات المعنى وسياقاته.

ب- اصطلاحا :بالرجوع إلى المصنفات التي عرّفت المفهوم من الوجهة الاصطلاحية نجد أنّ عباراتهم اختلفت بالنظر إلى الحقل المعرفي الذي يستند إليه للخروج بتعريف اصطلاحي للمفهوم، فالمفهوم عند الفلاسفة المسلمين، هو تلك المعرفة التي تحصل عن طريق القلب ولا تتدخل الحواس في إدراكها، أما كتب التعريفات ومعاجم المصطلحات " فالمفهوم هو ما جُعل في العقل بالقوة أو بالفعل أو هو :الصورة الذهنية. [7]"

أما المناطقة فقد اهتموا بالمفهوم باعتباره مفردة، وفرّقوا بين الما صدق والمفهوم، أما الأصوليون فالمفهوم عندهم هو ما يفهم من العبارة المكتوبة أو المنطوقة، وتصورهم للمفهوم متعلق بمجال الأحكام الشرعية، وركزوا على الجمل والتعابير وليس على المفردات [8].

ومنه نجد أن المفاهيم متروكة إلى الاتفاق الذي يضمن استقرار دلالة المفهوم وانضباطه، ولا ينضبط المفهوم إلاّ إذا دخل حيّز المصطلح، فالمفهوم مرتبط بالمصطلح أشد ارتباط، ولولا المصطلح لبقي المفهوم قابعا في الذهن، فالمصطلح هو الذي يكسب المفهوم هويته بين سائر المفاهيم الأخرى، وهو التسمية التي تمنحها المواضعة على المفهوم، وانطلاقا من هذا تغدو العبارة الحاملة للدلالة مفهوما قبل وقوع الاتفاق، في حين تصبح مصطلحا بعد الاتفاق على ضبط دلالتها في حقل معرفي أو علمي بعينه.

إذن ؛ فالمفاهيم ضرورة أساسية من ضروريات المعرفة، ولا توجد معرفة بدون مفاهيم" فمعرفة طبيعة المفهوم ومجاله وقصده هي من بين المسائل والقضايا التي تشتغل بها كل فلسفة منظمة وعقلانية، و يشتغل بها كل باحث له إستراتيجية محدّدة وآفاق موسومة، فالمفاهيم هي بؤرة للتفكير والتحليل والتنظير في أنواع البحوث[9] ".

تعد المفاهيم نواتج للمهارات العلمية، فالمفاهيم في مجموعها هي أساسيات المعرفة أو هي مجموعة من الاستدلالات العقلية أو الذهنية التي يكونها الفرد للأشياء والأحداث والعناصر المشتركة في السلوك الإدراكي لدى الأفراد وليس لدى الفرد الواحد [10]فالمفهوم نتاج تجريد ونتاج تعميم، انطلاقا من الصور والأشياء الخاصة، ولا يكون المفهوم إلاّ جماعيا لأنّه يصبح مصطلحا لدى مجموعة من النّاس في مجال تداولي خاص[11]

المفاهيم هي أحداث تولد الحقائق، لها كينونتها الخاصة، فالمفهوم كائن يمارس فاعليته وحضوره في كل ضرب من ضروب الممارسة الفكرية فهو خبرة وجودية وتجربة حيّة [12] تصاغ بلغة استمرارية " يحاول الفرد المتعلّم (فيها أن يجد طريقة أفضل لتنظيم معارفه وخبراته [13] "لا يمكن للفكر في العلوم الإنسانية أن يتعرف على شواهده ويتحقّق من آثار حركته وسكونه إلاّ بتوليد وحصر المفاهيم الدالة عليه .لذلك كانت المفاهيم ضرورية لكل أشكال المعارف الإنسانية لأنّ العلم حين يولّد مفهوما جديدا يكون في واقع الأمر بصدد طرح إمكانية جديدة للمعرفة[14] .

فمسألة المفاهيم مسألة مشتركة بين جميع التخصصات العلمية واللغوية والفلسفية...وأصبحت مسألة تتضافر فيها وحولها كل التخصصات والعلوم بل وأصبحت هذه التخصصات تتبادل فيما بينها المفاهيم، فنلاحظ أن المفاهيم تذهب وتجئ بين هذا العلم وذاك وبين هذه المعرفة وتلك كما أنّ تضافر التخصّصات يؤدي بالضرورة إلى إيجاد مفاهيم جديدة أيضا، فنحن نعيش في عصر المعرفة الدقيقة المتخصصة، حتى إنّنا صرنا نتحدث عن تخصص التخصص، ولكن الإشكالية المطروحة هي أنّ التخصصات لا تتّضح ولا تفهم إلاّ بتضافرها مع تخصصات أخرى وتضافر المفاهيم بينها وتبادلها حتى أبدعت لنا المفاهيم–أقصد هنا أن المفاهيم تعبر تخصّصات كثيرة وخلال عبورها هذا تولّد لنا تخصّصات جديدة– وهي تعبر التخصصات وتقيم علاقات مع غيرها من العلوم، تخصّصات جديدة، فاللغة واحدة من المفاهيم التي تناولتها مجموعة من العلوم واهتمّ بها كثير من العلماء، فقد وجهوا لها نظرهم على اختلاف تخصصاتهم فدرسوها كلّ من زاويته المناسبة له، حيث درسها علماء اللسانيات واتخذوها موضوعا ووسيلة وهدفا في دراستهم، ودرسها علماء النفس باعتبارها سلوكا بشريا مهما، ودرسها علماء البيولوجيا باعتبارها عملا من أعمال الدماغ، ودرسها علماء المجتمع باعتبارها ظاهرة اجتماعية لها وزنها الثقيل في جميع المجتمعات، حتى صارت هي التي تصنع هذه المجتمعات ودرسها الفلاسفة والمناطقة على أساس أنها عمل العقل وحاملة الفكر، ودرسها النقاد من مبدأ أنّها وسيلة للنقد، ودرسها الشعراء على أنّها أداة للتعبير، ودرسها الأدباء، فهي أداتهم للسرد، ودرسها أهل المسرح فهي وسيلتهم لكتابة الحوار، واشتركت جميع العلوم في دراسة اللغة ، فتمكّنت اللغة من إقامة علاقات مع علوم كثيرة، فما هي العلاقات التي يمكن أن تقيمها اللغة بغيرها من العلوم؟

- **علاقة اللغة بالعلوم المتعددة :**

يقول نبيل علي "اللغة هي الأم التي ترعى كل ناطق بها وكأنّه طفلها الوحيد، تزهو وتنمو إن تمرّد عليها شعراؤها، ولا تضيق ذرعا بصرامة علمائها وتغفر للعامة تجاوزها، ولا تحرم النخبة من تميّزها[15] "

فاللّغة قادرة على استيعاب جميع وجوه المعرفة، فهي شاعرة عند الشعراء، وصارمة دقيقة عند العلماء، ومتميّزة عند النخبة، فهي تثير اهتمام الكثير من العلوم وتقييم معها علاقات.

1- علاقة اللغة بعلم الاجتماع :

تلعب اللغة دورا مهما في المجتمع ، فهي أداة التواصل التي تمكن أفراد المجتمع من التواصل والاتصال فيما بينهم ولولا هذه الوسيلة الفريدة من نوعها لما تمكن أفراد المجتمع من التعبير عن أغراضهم حتى صارت هي التي تصنع المجتمع وتحقّقه فكما يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح "بها تصبح الهواجس وضباب المعاني والمقاصد أفكارا واضحة[16]". فاللغة ظاهرة اجتماعية تتفق عليها الجماعات البشرية، وهي تعكس كل ما يموج فيها من عادات وتقاليد وثقافة ودين وتنوّعات جغرافية وإقليمية، هذه الصلة بين اللغة والمجتمع ولدت ما يسمى باللسانيات الاجتماعية[17]sociolinguistique، هذا العلم الجديد المهجّن المنفتح على تخصصات الأخرى.

2- علاقة اللغة بعلم النفس :

اللغة هي الميزة الأسمى التي يتميّز بها الإنسان، وهي الوسيلة الأهم التي يعبر بها الفرد عمّا بداخل نفسه من احتياجات، وبالتالي يستعين علم النفس باللغة لدراسة العلاقات الرابطة بين احتياجات التعبير والتبليغ وبين الوسائل التي تمنحها اللغة لتلبية تلك الاحتياجات إذ أصبحت كل رسالة لغوية مؤشرا على سلوك معين .وقد كانت اللغة، صاحبة النزعة السلوكية المحضة في علم النفس المعرفي، وهي نوع من السلوك البشري، ولكنها تختلف اختلافا جوهريا عن أنواع السلوك الأخرى، فهي تقوم كما أسس لها دوسوسير على نظام، وكما أسس لها تشومسكي من بعده على بنية عميقة قوامها نسق معرفي كامن في العقل، وقد استعار علم النفس من اللسانيات فكرة وجود بنية عميقة داخل المخ البشري، تجعله قادرا على إبداع وتوليد عدد لا نهائي من التعابير اللغوية[18]

وهكذا تضافرت مفاهيم اللسانيات مع مفاهيم علم النفس ليكون" علم النفس اللغوي " psycholinguistique وليدا شرعيا لهذين العلمين، يحمل صفاتهما المفاهيمية معا.

3- علاقة اللغة بالفلسفة والمنطق :

انطلاقا من المعنى المعجمي نجد أنّ المنطق من نَطَقَ؛ أي تكلَّم، ونجد أنَّ لُغة من لَغا أي تكلَّم؛ فالمنطق واللغة مندرجان ضمن معنى لغوي واحد هو التكلّم، لذلك كانت الفلسفة واللغة يندرجان ضمن الدرس اللغوي منذ القدم، فقد نشأت الفلسفة وترعرعت في أحضان اللغة، وكوّنت معها رفقة حميمة " دامت ونمت على مرّ العصور من محاورات سقراط ومنطق أرسطو وانتهاء ببنوية شتراوس وتفكيكية جاك دريدا وألعاب اللغة في فكر ما بعد الحداثة، و خلال هذه الرفقة الطويلة نضجت العلاقة من مستوى التبادل المعرفي المتمثل في ثناسية اللغة كأداة للفلسفة، والفلسفة كأداة للغة إلى أن وصلت إلى شبه الانصهار الكامل[19] ، فمضمون الدرس اللغوي عند الغربيين قديما ومنذ أرسطو هو المنطق ذاته، وحدث بعد ذلك نوع من الانفصال التدريجي بين اللغة والمنطق حتى استقل المنطق بدراسة صورية (formelle) موضوعها الفكر وعمل العقل.

وأول خطوة في مجال الانفصال بينهما كانت من الألماني ويليام ليبتنز wilhem **leibinetz** **(1664-1716م)** إذ سعى إلى تمييز المنطق عن اللغات الطبيعية بلغة تجريدية شبيهة بلغة الرياضيات، وتحولت لغة المنطق إلى صياغة خاصة تستعمل فيها الرموز [20] على الرغم من الانفصال بين الفلسفة واللغة إلاّ أنّ الفلسفة دائما تلجأ إلى اللغة كخيارها الوحيد للتعبير عن مقولاتها " . لقد انشغل الفلاسفة القدامى برموز اللغة ومعانيها، محاولين مطابقة العقل وذلك لإخضاع اللغة إلى نوع من التجريد حتى تكون أداة للتحليل الفلسفي، وبقيت مسألة المعنى اللغوي لغزا حيّر الفلاسفة عبر قرون، وكانت كلّ محاولة لاحتواء المسألة، تنقلهم من إشكالية أضيق وأبسط إلى إشكال أكثر تعقيدا إلى أن قرر لودفيغ فيتغنشتاين وضع نظرية للمعنى من دون الحاجة إلى فهم ما هو المعنى أصلا وعلى الرغم من هذا تظل اللغة دوما أداة للفكر الفلسفي"[21].

كما تحتاج الفلسفة إلى اللغة، تحتاج اللغة للفلسفة كذلك، فقد لجأت اللغة إلى الفلسفة لحاجتها ألى نهج معرفيParadigme، ترقى به إلى مصاف العلوم الدقيقة، فقد وجد دوسوسير مؤسس اللسانيات الحديثة في فلسفة بيرس الرمزية مدخله لصياغة العلاقة اللغوية التي تربط بين الرمز اللغوي ومدلوله، واتخذ تشومسكي صاحب أكبر مدرسة في التنظير اللغوي المعاصر من فلسفة كانط أساسا لتنظيره اللغوي، فقد افترض كانط وجود قدرة ذاتية كامنة في العقل البشري، و هذا ما بنى عليه تشومسكي نظريته التوليدية التحويلية إذ افترض وجود ملكة فطرية في ذهن الإنسان تمكنّه من اكتساب اللغة وتوليد عدد لا متناه من الجمل، هذه الملكة هي شيء غريزي مشترك بين جميع بني البشر[22] ومن هذا نجد أنّ الفلسفة بحاجة إلى اللغة، فهي أداتها لصياغة المقولات وأنّ اللغة تحتاج إلى الفلسفة، فهي وسيلتها لإيجاد نهج معرفي ترقى به إلى مصاف العلوم الدقيقة، وأنّ علاقة اللغة والفلسفة تنبثق من علاقة كليهما بالفكر.

4- علاقة اللغة بالبيولوجيا:

لعلّ أهم علاقات للغة العلمية كانت تلك التي تقيمها مع البيولوجيا، فهي تمثل لقاء اللغة، قمة العلوم الإنسانية مع البيولوجيا قمة العلوم الطبيعية [23]، فللغة صلة وثيقة ببيولوجية الدماغ، ذلك أنّ اللغة ظاهرة بيولوجية دماغية تعمل في القسم الأيسر من الدماغ البشري، إنّ أي اضطراب وخلل يؤثر على الوظائف البيولوجية في الدماغ، سيؤثر بالضرورة على الوظائف اللغوية، وهذا الالتقاء العلمي بين اللغة والبيولوجيا ولّد ما يسمى باللسانيات البيولوجية[24].

5- علاقة اللغة بالأدب :

إنّ معرفة اللغة أمر ضروري لقراءة النصوص الأدبية ودراستها، واللغة نظام يفرض على كل رسالة أو نص ما، فالأدب ممارسة لغوية في المقام الأول، سواء في إنتاجه أو تلقيه أو كما قال رولان بارت " اللغة هي وجود الأدب " وإذا قورن الأدب بالعلم فيما يخص علاقة كليهما باللغة، فاللغة أداة العلم، أما الأدب فقابع بكامله في مملكة اللغة، فهو يفجرها من داخلها لأنّه يحطم المعهود من قوالب معانيها، لذلك قيل : الأدب سلاح مميت تنتحر به اللغة، ومن خلال اللغة يخلخل الأدب المفاهيم الأساسية للثقافة والفكر عموما [25] فكثير من الكتّاب المعاصرين يتصورون العمل الأدبي نشاطا منظما في تهديم اللغة وما النّص إلاّ طريقة في توظيف اللغة واستثمار إمكانياتها لهذا كان تحليل الخطاب المقترح من هاريس لا يهدف إلى معرفة ما يقوله النص، ولكن الطريقة التي يقال بها النص.

وخلاصة القول، تعد اللغة نهجا معرفيا يمكن تطبيقه في مجالات معرفية مختلفة ومتعددة، فهي تقف في مفترق الطرق بين جميع المعارف والعلوم بل وأصبحت مفتاح حداثة العلوم الإنسانية والطبيعية على السواء، فباللغة تنفتح العلوم على بعضها فتتمازج وتتعالق وتتضافر مفاهيمها وتخصصاتها.

هذا بشكل عام عن المفاهيم في أبعادها الفلسفية العامة وعلاقة العلوم والتخصصات بعضها ببعض، حيث تمثل اللغة الركيزة الجامعة الضرورية لجميع العلوم والمعارف وإتقانها ضروري في تمثل العلوم والمعارف وفهمها واستيعابها وإجادة تحليلها وكلّ ذلك إنّما يتأسس على إدراك مفاهيمها المختلفة، وعلاقة بعضها بعض، وكيف يتم توظيفها في هذا التخصص وكيف يتغير شيئا ما هذا التوظيف في تخصص أخر.

6- تضافر المفاهيم اللسانية:

لكل معرفة مفاهيمها ومصطلحاتها التي ترتكز عليها ولغتها الخاصة التي تميّزها وتعطيها هويتها بين سائر المعارف والعلوم التي تحيط بها، لذلك تحتاج كل معرفة إلى استيعاب مفاهيمها وضبط مصطلحاتها ضبطا دقيقا حتى تتمكن من توظيفها توظيفا صحيحا، هذا ما يضمن لها تحقيق الكفاءة العلمية المرجوة منها، و"يمكن القول إنّ العلوم الإنسانية ليست في نهاية المطاف إلاّ شبكة من المفاهيم والمصطلحات وهي في حالة توظيف واستنفار وتجل واشتغال"[26].

ولا يكون العلم علما إلاّ بمفاهيمه الخاصة به، هذه

المفاهيم التي تعيش في البيئة المعرفية الاصطلاحية منقسمة إلى نوعين؛ فمنها ما يقتصر مفهوما واستعمالا على تخصص علم واحد بعينه لا يتعداه، ومنها ما يسافر عبر تخصصات معرفة مختلفة ومتباينة ولكنّها متقاربة ومتاخمة لبعضها، حيث تتقاطع في كثير من مفاهيمها ومصطلحاتها، فلا تكون حكرا على تخصص واحد، بل تتعداه لتتغذى من روافد تخصصية ومعرفية مختلفة، فتستعيرها العلوم من بعضها، وهذا النوع من المفاهيم والمصطلحات هو الذي يهمنا في بحثنا، لأنّه يستطيع العيش بين عدة معارف، فيكون تداوله واستعماله سهلا وبسيطا ويتمكن بالتالي من أن يتفاعل مع مفاهيم أخرى فيتضافر معها، ومن ذلك مثلا أنّ علوم اللسان صارت تتسع لتخصصات أخرى ذات علاقة ببعضها لكن في الوقت نفسه كل منها يضع خريطته المعرفية، ويرسم حدوده الخاصة التي تميّزه عن غيره، انطلاقا من قاعدة المفاهيم التي تأسس عليها، فاللسانيات أصبحت علوما لسانية، متشعبة تتخذ من اللغة موضوعا لها، من أجل وصف بنائها وصفا علميا أو وصف علاقاتها مع غيرها، سواء كان هذا الغير بشريا أو قيما حضارة أو كونا طبيعيا برأي محمد الأوراغي [27] .

إنّ المفاهيم اللسانية كثيرة جدا تدل عليها مصطلحاتها المتعددة و المتداخلة والمتضافرة كما تتجلى في خطاباتها ونصوصها، كما هو حاصل على سبيل المثال بين مفاهيم لسانيات النص وتحليل الخطاب، والنقد الأدبي وعلم النص، والمداس اللسانية والمدارس النقدية والمذاهب الأدبية.... الخ، ثمّ إنّ كثيرا من المصطلحات اللسانية متضافرة بعضها ببعض، ولا تتضح إلاّ من خلال هذا التضافر الذي قد يبدو تداخلا أو تضادا بينها ولكنّه في حقيقة الأمر، هذا مبني على ذاك كما هي الحال لثنائيات دوسوسير بالنسبة للدال والمدلول في تكوين العلامة اللسانية، والآنية والزمانية في الدلالة على منهج البحث، واللغة واللسان والكلام بالنسبة لموضوع البحث، ومحور التركيب ومحور الاستبدال بالنسبة لممارسة التحليل .... الخ وكذا الشأن للتضافر الحاصل بين مفهوم الملكة والأداء، والبنية العميقة والبنية السطحية عند شومسكي، الذي بنى مفهوم الملكة اللغوية على مفهوم الطاقة الخلاقة عند ويليام فون هومبولت الذي أسس نظريته على فكرة مفادها أنّ اللغة إنّما هي عمل العقل، وهي الصوت المنطوق الذي يعبر على فكرة[28]، بينما الهدف من البحث اللساني في النظرية التوليدية التحويلية، ينحصر في تحديد المعرفة باللغة بالنسبة للمتكلم؛ أي علم المتكلم بلغته، فمن يتكلم لغة ما، فيعني ذلك أنّه يملك تصورات عنها في ذهنه، ومن ثمّ في دماغه الذي يحدد اللفظ ودلالته وبالتالي يتم تحديد العلاقات المتداخلة بينهما، وتلك العلاقات هي التي ستولد أنواعا غير متناهية من الجمل، فالمتعلم للغة أجنبية غير لغته الأصلية قد يحفظ مفردات عديدة جدا من اللغة الأجنبية ولكنّه لا يستطيع أن يركّب جملا صحيحة في هذه اللغة، لأنّه لا يمتلك نظامها القواعدي الكلي] النحو الكلي عند تشومسكي [وبما أنّه لا يملك هذا النظام من القواعد، فهو لا يستطيع أن يتكلّم بها بشكل سليم، وهذا لأنه يفكّر بلغته الأصلية، ولا يفكر بلغته الأجنبية التي يريد تعلّمها، على عكس المتكلّم الأصلي الذي يستطيع توليد ما لا نهاية من الجمل.

من هذا نستنتج أنّ اللغة ليست مفردات، بل هي نظام كلّي من القواعد الكامنة في ذهن الإنسان، وما المفردات إلاّ أوعية للمعاني، أو هي وسائل تمكننا من التفاهم وتبادل الأفكار، بل إنّه يمكن تجاوز ذلك إلى العلوم المعرفية cognitive sciences فكما يقول الدكتور محمد غاليم إنّ العلوم المعرفية شهدت " تطورا هائلا يتجلى في التحولات الكبرى التي تشهدها علوم كاللسانيات وعلم النفس المعرفي والعصبي) بفروعه وتخصصاته (والأناسة والأحياء والذكاء الاصطناعي ....الخ، وتعتبر النظرية الأدبية معنيّة إلى أقصى حدّ بهذه التحولات التي تسعى في عمومها إلى بلورة ما أصبح يسمى اليوم نظرية صورية للمعرفة formal theory of cognition، وضمنها المعرفة اللغوية والمعرفة الأدبية"[29] .

إذن تتضافر الكثير من المفاهيم والمصطلحات في العلوم اللسانية وتتداخل، ومن بين هذه المفاهيم مفهوم البنية؛ فهو على سبيل المثال لا الحصر، يعد مفهوما موجودا في كثير من المعارف والعلوم، فقد احتلّ مكان الصدارة بين مفاهيم الفكر الحديث، فالبنية لم تعد مجرد مفهوم علمي أو فلسفي يجري على أقلام علماء اللغة وأهل الأثروبولوجيا وأصحاب التحليل النفسي، وفلاسفة الابستيمولوجيا أو المهتمين بتاريخ الثقافة فحسب، بل قد أصبحت أيضا المفتاح العمومي passe–partout الذي يهيب به عالم الاقتصاد والنحوي والناقد الأدبي والمخرج السينمائي والقصّاص ومصمم الأزياء والمهتم بشؤون الطهي ...الخ[30]، ولا شكّ أنّ كل هذه التطبيقات التي عرفها منهج التحليل البينوي هي التي جعلت من البنية كلمة واسعة فضفاضة لا تكاد تعني شيئا، لأنّها تعني كل شيء [31]! فهي في الأنثروبولوجيا ليست واقعا تجريبيا كليا يقبع وراء المعطيات المباشرة بل تكمن في الطريقة التي تصور بها العلاقة القائمة بين الصورة والمضمون، فهي بذلك نظرية في المعرفة. وتهدف البنية في التحليل النفسي إلى الكشف عن أهمية دراسة اللاّشعور باعتبار الذات بنية، وهذه الذات هي البنية القصوى التي تتحكّم في كل أنشطتنا والفهم الحقيقي لهذه البنية هو فهم الذات الإنسانية في شعورها ولا شعورها[32] فصرنا نقول" بنية الشخصية " في علم النفس، و"البنية الاجتماعية" في علم الاجتماع، والبنية الجغرافية "في الجيولوجيا و"البنية المعرفية " في الفلسفة و"البنية اللغوية "في اللسانيات، فقد جعل دوسوسير من اللغة بنية ونظاما ونسقا، وأعطاها- البنية –الأهمية القصوى في منهج تحليله اللساني وصار مفهوم البنية مفهوما تتقاطع فيه الكثير من العلوم الإنسانية والطبيعية، وتحوم حوله جميع التخصصات على اختلاف توجه الباحثين ومرجعياتهم الفكرية وإجراءاتهم المنهجية في التحليل، حتى غدا مفهوما أساسيا في أي خطاب تقريبا.

ثمّ إنّ البنية كمصطلح، يحمل مفهوما علميا يدل عليه، يتضافر مع مفاهيم أخرى مثل :الشكل والهيكل والصورة والبناء الخارجي ... ويمكن أن نورد أمثلة أخرى غير ما ذكرنا من ذلك: والتضافر الحاصل بين مفاهيم النص والخطاب، والمقام والسياق، والاتساق والانسجام، والنصانية والتناص، ولسانيات النص ونحو النص وعلم النص وعلوم اللغة وعلوم اللسان واللسانيات، والملفوظ والتلفظ ...وهل يظهر التلفظ على مستوى الخطاب أم على مستوى النص؟ والتساؤل نفسه بالنسبة للملفوظ، هل تقتضيه اللغة المكتوبة أم اللغة المنطوقة؟ فالنص يتداخل مع الخطاب، فإن كان يختلف عنه، فهو يتفق معه في كثير من الأحيان فالنص هو المتعلّق بالمكتوب، والخطاب هو المتعلق بالجانب المنطوق، والنص هو خطاب تمّ تثبيته بواسطة الكتابة، ومهما حاولنا التفريق بين النص والخطاب يبقى التداخل بينهما واضحا، لدرجة أنّ هناك من لا يفرق أصلا بينها، وهذا التداخل بين النص والخطاب، أفرز تداخلا بين علمين يرتكزان على النص والخطاب هما :لسانيات النص وتحليل الخطاب، فكثيرا ما يقع الخلط بين هذين العلمين على مستو المفاهيم وحتى على مستوى التسمية، فهناك من يقول لسانيات الخطاب بدل لسانيات النص، وهذا راجع إلى عدم التفريق بين النص والخطاب، وتداخل مفاهيمهما، أمّا عن المقام والسياق؛ فهما مصطلحان متداخلان من حيث مفاهيمهما، فكل من المقام والسياق متعلق أكثر بالظروف التي قيل فيها الخطاب أو كتب فيها النّص، ولكنّ السياق متعلق أكثر باللغة أو بالجانب النحوي في النص أمّا المقام فيتعدى ذلك ليلامس الأسباب التي قيل من أجلها الخطاب أو التي كتب فيها النص، ولكن يبقى المقام والسياق متداخلين متضافرين متاخمين لبعضهما، أمّا فيما يخص الاتساق والانسجام فهناك خلط كبير وتداخل واضح بينهما [33]، ولكن المتفق عليه أنّ الاتساق يكون على مستوى اللغة الواحدة، يعني أدوات الربط وآليات الارتباط بين أجزاء اللغة وهذا تختلف فيه لغة عن أخرى، أمّا الانسجام فيكون على مستوى الأفكار وترابطها و تسلسلها الدلالي والمنطقي، ولكن هذا التفريق لا يمنع من أن يكون تداخل كبير بينهما، أما عن

لسانيات النص ونحو النّص وعلم النص، فالكثير من علماء اللغة يقع في تداخل بين هذه العلوم، فلسانيات النص هي ترجمة لـ **Linguistique textuelle** وهي تلك التي تدرس النص كأكبر وحدة للتحليل اللساني ولها سبعة معايير معروفة، منها ما تعلق بالنص، ومنها ما تعلق بمنتج النص، ومنها ما تعلق بالمتلقي للنص، ومنها ما تعلق بما هو خارج عن النص، أما نحو النص فهو ترجمة ل **Grammaire du texte** :وهو متعلق كما يقول الكثير بترابط الجمل أو الجانب التركيبي في النص، وما تعلق بالجوانب التي تربط بين أجزاء النص، وهو بهذا يكون أقل حرية من المفهوم السابق له، أما علم النص فهو ترجمة لـ textologie : وهو يجمع بين المفهومين السابقين ليتعداهما، فيكون أشمل منهما ليضم علوما كثيرة، تتضافر جميعا لفك شفرة نص ما... تتلاقى هذه المفاهيم وغيرها في تحقيق فهم النصوص والخطابات وإدراكها والوعي بها، ومعرفة رسم الحدود بينهما، ومعرفة الثقافة المحددة التي أنتجها وخصوصياتها المميزة، يسهم بشكل كبير في بناء الملكة التحليلية للنصوص.

نستخلص من كل هذا، أنّ مسألة المفاهيم وتضافرها وعبورها من تخصص إلى تخصص آخر، إشكالية فلسفية على مستوى الجهاز النظري للعلوم والمعارف ومنها النّص، وإشكالية منهجية على مستوى الإجراء التطبيقي في تحليل النصوص ودراستها .

الهوامش:

1- محمد مفتاح، ما المفاهيم، المفاهيم تكونها وسيرورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 87، ط 1 ، 2000م – 1421هـ مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص 11.

2- محمد الشيخ، بناء المفاهيم و إعادة بنائها، مفهوم الميتافيزيقيا نموذجا، من أرسطو إلى هايدجر، عالم الفكر، العدد2 ، المجلد41 ، أكتوبر- ديسمبر 2012 ص.7

3- نفسه، ص.10

4- نفسه، ص.08

5- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف، ه، م).

6- محمد مفتاح، المرجع المذكور سابقا، ص.11

7- نفسه، ص.12

8- انظر ؛ نفسه ص12 ،.13

9- نفسه ص.11

10- انظر :محمد حمد الطيطي، البنية المعرفية لاكتساب المفاهيم : تعلّمها وتعليمها، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن 2010، ص45 ،.46

11- محمد مفتاح، المرجع المذكور سابقا، ص.14

12- انظر :على حرب، الماهية والمنطق، نحو منطق تحويلي) دط (،) دت (ص.05

13- انظر ، محمد حمد الطيطي، المرجع المذكور سابقا، ص.48

14- سعيد أراق، القدرة النصيّة، مقاربة تعريفية عامة، مجلة تحليل الخطاب، تيزي وزو الجزائر، ص12

15- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، يناير 2001 ص228 .

16- عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل إلى علم اللسان الحديث(3)، ص.24

17- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ص.14

18- انظر؛ نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص248 ،. 249

19- نبيل علي، المرجع نفسه، ص.243

20- انظر 100 fiches pour comprendre la linguistique, p 10

21- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص244_243

22- نفسه ص243 ،.244

23- نبيل علي، المرجع السابق، ص249 ،.250

24- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات، ص.15

25- العقل العربي ومجتمع المعرفة) مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول (عالم المعرفة، دولة الكويت 2009 ص.176

26- سعيد أراق؛ القدرة النصيّة؛ مقاربة تعريفية عامة ص.11

27- محمد الأوراغي اللسانيات النسبية وتعليمية اللغة العربية، منشورات الاختلاف ط1 ، 2010 ص.178

28- بشير إبرير، تعليمية النصوص بين النظري و التطبيق.عالم الكتب الحديث إربد ص60

29- محمد غاليم، اللغة والأجناس الأدبية في السياق المعرفي، ضمن كتاب الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، المجلد 2 عالم الكتب الحديث، ص.509

30- إبراهيم زكرياء، مشكلات فلسفية، مشكلة البنية، أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة) دط(،) دت (ص7 ،.8

30- إبراهيم زكرياء، نفسه، ص8 .

31- نفسه ص259 ،260 ، 261.

32- ربما يرجع هذا لعدم الدقة في الترجمة لمصطلحي Cohésion و Cohérence